إلى أين المصير ؟

بقلم الدكتور اسماعيل صبري عبدالله

عرفت الثورة العربية خلال السنوات العشر الاخيرة حركة مد وجزر متعاقبين . وقد عرفت القوى الثورية قبلنا المد والجزر . ولسنا نقول هذا تبريرا لاخطاء ، او تعزية حيث لا عزاء . فليس حتما مقضيا على كل ثورة ان تعرف على التوالي التقدم والتراجع . وانما نحاول ان نضع الساعة الراهنة موضعها الصحيح من سلسلة الزمن المعاصر حتى لا يلهينا حدث على فداحته عن ادراك حركة الاحداث في جوهرها. ان الثورة العربية بابعادها الثلاثة : التحرري، والتقدمي ، والوحدوي قد احرزت نجاحات مؤكدة على رأسها استقلال الجزائر وثورة اليمن الشمالي ثم الجنوبي، واجراءات التحرر الاقتصادي والتحول الاجتماعي في عدد من الاقطار العربية ، واتضاح المحتوى التحرري والتقدمي الضروري لفكرة الوحدة العربية . وقد تعثرت الثورة في مواقع كثيرة لاسباب متعددة في مقدمتها تفرق القوى الثورية والتقدمية والصراع العنيف بينهما . ولكن الجزر الاعظم الذي واجهته حركة التحرر العربي هو بقينا هزيمة ١٩٦٧ . نعم لقد كانت تلك الهزيمة باثارها العميقة ، وابعادها الرهيبة ، وبوقوعها ثالثة بعد ١٩٥٦ و ١٩٤٨ اعتى ما اصاب الامة العربية في العصر الحديث : اقتطاعا من الجسد ، وهوانا للعزة ، وامتحانا عسيرا للعقل والارادة .

واذا كان رد الفعل المباشر والتلقائي للجماهير العربية قد جاء رائعا وملهما ، رفض للهزيمة ، وصمود في وجه العدوان ، واصرار على النضال حتى النصر ، فان ردود الفعل في دوائر الحكم والسياسة واوساط المثقفين وطلائع الشباب لم تكن دائما في مستوى الاحداث . لقد انتاب البعض بلبلة فكرية هائلة دعتهم الى اعادة النظر في كل شيء ، والشك في كل شيء . واشرأبت روح الهزيمة والاستسلام تتشفى بالقوى الثورية وما اصابها وتشيع باسم التعقل والاعتدال والواقعية الدعوة الى التسليم للاستعمار الجديد والتماس الامن في ظل عصا الامبريالية الاميركية الغليظة واداء ما تقتضيه تلك الحماية من اتاوة في شكل التخلي عن امالنا العراض في الحرية والاشتراكية والوحدة . وفي الطرف الاخر وقف ثوريون شرفاء تقطر وطنيتهم مرارة واسى ، يكاد القنوط ان يملك عليهم نفوسهم ويحملهم الى المطالبة بالمغامرة بأي شيء كمن يشتهي غسل عار الهزيمة ، وسقي فولاذ الارادة ، والتطهر من اخطاء وصلت احيانا الى حضيض الخطيئة في نار حرب تحقق ذلك كله أو لا تبقي على شيء .. وليس في ردود الافعال تلك غنى لشعوبنا . اذ لا غنى لاي شعب يواجه ما نواجه من امتحان الا في التفكير الهادىء والحساب الدقيق . وهذا ما لا يتأتى الا بمعرفة بالواقع شاملة وكافية . ولكن الفرق بين الثوريين و« الواقعيين » في هذا المجال يكمن في ان تلك المعرفة تنتهي بالاخرين الى الاستسلام للواقع ، في حين انها في نظر الاولين ضرورة بالدقة لتجاوز الواقع بفاعلية ونضال بدل الفرار منه تعلقا بالخيال . ومن الناحية الاخرى ، لا شك ان الحماسة ذخر للمقاتل لا تعادله ذخيرة، والوطنية المشبوبة درع واقية من سهام الاستعمار الجديد ، ولكن التحليل العلمي « على البارد » هو وحده الذي يهدي الى سبل النصر .

وهذا التحليل العلمي المنشود من اصعب الامور . ولا ترجع صعوبته فقط الى ما يجيش بالنفوس من غيظ مكظوم والم مضطرم وسخط متقد . بل ترجع كذلك الى اننا نواجه ظاهرة عدوانية بالغة التعقيد تشابكت عندها عوامل متعددة ، وتراكمت حولها عبر السنين احداث ذات اثار متنوعة ، ومن ثم لا يمكن ان نملك لها حلا فردا بسيطا وواضحا . ان مواجهة الظاهرة الصهيونية الامبريالية في فلسطين والوطن العربي لا بد بالضرورة ان تمتد افقيا من حيث التنوع الموضوعي في الاساليب والوسائل ، ورأسيا من حيث الامد التاريخي . والسؤال: الى اين المصير ؟ يجب ان يسبقه سؤال اخر : ما هو المصير ؟ ما ظهر منه وما استتر .

النظرة الجزئية خطأ وخطر

فمنذ ان حلت بالوطن العربي نكبة الصهيونية سادت في بلادنا في اوقات مختلفة ، وتعاصرت احيانا ، نظرات الى الظاهرة الصهيونية الامبريالية تركز على جانب واحد منها ، واحيانا تتوهم فهم احد الجوانب ، وتهمل بقية حقائقها المعقدة . ولا بد من الخلاص من تلك النظرات ومن الفكريات التي تعبر عنها . وكلما تخلصنا من واحدة منها رفعنا عن البصر غشاوة حتى يصبح حديدا لا يخطىء الرؤية .

واكثر تلك النظرات فجاجة هي **النظرة العنصرية** التي قوامها ان اليهود عنصر شرير يدبر باستمرار لافساد البشرية والسيطرة عليها مستغلا المال والجنس ، يسيطر في الخفاء حتى يتمكن فيسيطر في العلن . وتستند تلك النظرة الى ما يسمى « بروتوكولات حكماء صهيون » ، وتستمد الكثير من الحجج من مستنقع النازية . وهذه

النظرية تتناقض تماما مع قيم الحضارة العربية التي قامت وازدهرت تحت شعار « لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » والتي رفضت بصفة عامة المفاهيم العنصرية . ان العرب لم يروا في « اليهودية » « عنصرا » وانما رأوا فيها دينا من الاديان السماوية ، لمن يعتنقه ضمانات وفرها الاسلام . لقد عاد اليهود الى القدس بعد ان طردهم منها الامبراطور طيطس بحوالي ستة قرون بعد ان حررها العرب من حكم بيزنطة . وحين احتل الصليبيون المدينة المقدسة، اعملوا التذبيح في المسلمين والمسيحيين وطردوا منها اليهود . ولما حررها صلاح الدين عاد اهلها من اليهود اليها خلف جيش البطل العربي الكبير . وفي الوقت الذي كانت فيه اوروبا في العصور الوسطى تحاصر اليهود في احياء لا يخرجون منها وتفرض عليهم صنوفا من الاضطهاد كان الفكر اليهودي يزدهر في بلاد العرب . وتنمو الفلسفة اليهودية مقتفية اثر الفلسفة الاسلامية ، على منهج المتكلمين اولا ثم متأثرة بفلاسفة الاسلام الكبار . واكبر الاسماء في تاريخ الفلسفة اليهودية حتى العصر الحديث كانت بلا ادنى شك اسماء موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد وطبيب صلاح الدين، ويوسف بن سعيد الفيومي المشهور عند اليهود باسم سعديا . ان الفكر العنصري ظهر وتأكد وانتشر في اوروبا ، ليس ضد اليهود وحدهم، وانما كسلاح ايديولوجي في خدمة السيطرة الاوروبية. فمواطن روما سيد غير منازع في كل انحاء الامبراطورية. و«السلام الروماني» معناه خضوع الامم لسيطرة روما لتعيش في سلام تفرضه جيوشها ، تماما كما يتصور القوم في واشنطون اليوم « السلام الاميركي » . واللاسامية ليست الا احد مظاهر ذلك الاتجاه العنصري الاصيل الذي يتمثل في الموقف من السود ، او من الصفر ، او من شعوب العالم الثالث كلها . والتسليم بمعاداة السامية مطبقة على اليهود يسقط كل حجة في تطبيقها على العرب . ذلك اننا بمنطق العنصرية ساميون كاليهود تماما . ان تقاليدنا الحضارية رفضت هذا الفكر . وعاش اليهود بيننا يعانون ما يعاني مجتمعنا ويتمتعون بما يصيب من تقدم . واللغة دائما شاهد حضاري لا يكذب . لقد تكلم يهود البلاد العربية لغة العرب . في حين ان الاضطهاد حملهم في اوروبا على ان يستخدموا لغات خاصة بهم . ومن المعروف في علم اللغة ، ان اللغات الخاصة تنشأ من احتياج الجماعات المضطهدة الى استخدام لغة لا يعرفها مضطهدوها . وهكذا نشأت « اليدش » و « اللادينو » . وليست اي منهما تعبيرا عن حفاظ على لغة قومية . فالاولى وهي لغة الاشكناز مشتقة من الالمانية (وكلمة اشكناز نفسها تعني المانيا) والثانية وهي لغة السفاراديم مشتقة من الاسبانية (وسفراد تعني اسبانيا) . واليهود قد فقدوا ارتباطهم بالعبرية منذ قرون عديدة . ففي القرن الثاني الميلادي كان يهود مصر عاجزين عن قراءة التوراة ، مما حمل بطليموس على تكليف عدد من الاحبار بترجمته الى اليونانية (الترجمة السبعينية) . والتسليم بهذه النظرة العنصرية يطمس نهائيا دور الاستعمار في انشاء اسرائيل ودعمها . ومن المعروف انه لولا بريطانيا لما وجد الوطن القومي ولا نشأت اسرائيل ، ولولا سلاح فرنسا واموال وسلاح المانيا الغربية ، واموال وسلاح ونفوذ الولايات المتحدة لما اصبحت اسرائيل ما هي عليه اليوم . ولكن اخطر ما في النظرة العنصرية هي انها تسليم كامل بوجهة نظر العدو الصهيوني نفسه ، فالصهيونية تقوم على فكرة ان اليهود عنصر متميز بين سائر البشر . حقا انها تعتبره العنصر الممتاز ، اما اعتباره على العكس العنصر المنحط فانه لا يغير من التسليم بأنه عنصر متميز على كل حال .

وثمة نظرة اخرى ، على جانب كبير من الصواب ، ولكنها تخطىء حين تصاغ في اطلاق يهمل حقائق اخرى ، واعني بها نظرية **اسرائيل اداة الاستعمار** . ولها ولا شك فضل القاء الاضواء على دور الاستعمار في نشأة اسرائيل ودعمها ، وعلى دور اسرائيل في خدمة الاستعمار. ولكنها تهمل دور الصهيونية كحركة استعمارية لها مكانها المتميز داخل اطار الاستعمار العالمي . فاسرائيل ليست مجرد قاعدة عسكرية تابعة لاميركا مثل جوانتانامو في كوبا . ومهما يكن من مدى اعتمادها على الغرب بصفة عامة وعلى اميركا بصفة خاصة ، فانها تستند الى حركة صهيونية منظمة تنتشر في بلاد كثيرة ، يقودها احتكاريون كبار ، وتملك من وسائل التأثير ما بدا واضحا مثلا في الانفصام الكامل بين سياسة ديغول وبين موقف الصحافة الفرنسية. او حتى الاذاعة والتلفزيون بالرغم من تبعيتهما للدولة . كما انها تتجاهل حقيقة وجود مجتمع اسرائيلي يتجاوز المليونين عدا له صراعاته ، وبه طبقة مسيطرة ، وايديولوجية توسعية ، وقدرات عسكرية ، تجعل اسرائيل اقرب الى الشريك الصغير للدول الامبريالية ، منها الى مجرد الاداة معدومة الاطماع الذاتية . فالى جانب دور اسرائيل كاداة للاستعمار ، توجد اسرائيل كدولة استعمارية . بل انها بقدر نجاحها في دورها في خدمة المصالح الاستعمارية للدول الكبرى تؤكد وجودها المستقل وتفرض مطالبها الخاصة .

وخلال كتابات ما بعد نكسة ١٩٦٧ ظهر شيئا فشيئا ان جوهر الظاهرة الصهيونية الامبريالية هو ان الدولة الصهيونية امتداد عنصري للغرب الاستعماري في قلب الوطن العربي . انها اخر محاولات **الاستعمار الاستيطاني** التي قام بها الغرب ، والتي اتخذت دائما شكل هجرة بعض مئات الالوف من الاوروبيين الى ارض اجنبية يسيطرون عليها وينشئون منها دولة غربية « فيما وراء البحار » ، كما كان يقال بلغة القرن الماضي . ولكن حقيقة اسرائيل كاستعمار استيطاني لا ينبغي ان تقودنا فورا الى القياس باحداث الجزائر . فالمستوطنون في اسرائيل قدموا من بلدان شتى ، وبالتالي ليس لهم « وطن ام »

يفكرون في العودة اليه جميعا اذا ضاقت بهم سبل الحياة في فلسطين . ولهذا فالشعور السائد بينهم هو انهم يقاتلون وظهرهم الى البحر . ان المستوطن الاوروبي في الجزائر كان من الناحية القانونية فرنسيا يعيش في الجزائر . اما المستوطن الاسرائيلي فليس له جنسية اخرى . وبالتالي عليهم ان يستميتوا من اجل البقاء. ومن ناحية اخرى ، قدم عدد كبير من هؤلاء المستوطنين من البلاد العربية . وليس خافيا ان السياسة الخاطئة التي عمدت اليها بعض الحكومات العربية في تشجيع اليهود على مغادرتها نهائيا قد لعبت دورا حاسما في الدعم البشري لاسرائيل . ففي الخمسينات كانت موجة الفرار من اوروبا قد انحسرت بعد انهيار النازية واستقرار الاوضاع في شرقي القارة . ولولا يهود اليمن ويهود العراق ثم يهود المغرب لما زاد عدد المهاجرين الى اسرائيل على النحو الذي تم به . ومهما يكن من امر ، فهذا الفريق من المستوطنين ليس اوروبيا ولا يفكر في العودة الى اوروبا . ومن ناحية ثالثة ، نشأ في اسرائيل جيل جديد « السابرا » ولديها وسط دعاية ايديولوجية مركزة تفهمه ان تلك هي ارضه وارض آبائه ولا يعرف لنفسه وطنا اخر . واخيرا ، لم ينتشر المستوطنون داخل بلد اغلبية سكانه من قومية اخرى ، كما كانت الحال في الجزائر . بل فرضوا لوجودهم مرحليا حدودا لهم فيها الاغلبية الواضحة ، وزاوجوا بين التوسع الاقليمي وطرد السكان العرب بغية ان تكون لهم الارض خالصة . وكل تلك امور تعقد ظاهرة الاستيطان الاسرائيلي . ويتعين دائما اخذها في الحسبان .

المخطط الصهيوني : ابعاده ووسائله

حقا ان اسرائيل في الجوهر **مشروع استعمار استيطاني اوروبي اقامته الصهيونية العالمية** . فالهجرة الى فلسطين ظلت الى ما بعد قيام دولة اسرائيل ، اوروبية خالصة . ولم يهاجر يهود الشرق الى « ارض الميعاد » الا على اثر المشكلات التي خلفها في البلاد العربية قيام تلك الدولة وولاء بعضهم لها على حساب الوطن الذي نشأوا فيه ، وسياسة الحكومات العربية الرجعية التي ساعدت على هجرتهم . وهذا امر مفهوم تماما . فاوروبا هي موطن اضطهاد اليهود الذي كان « روتينا » عاديا طوال العصور الوسطى وحتى الثورة الفرنسية ، والذي اشتدت وطأته في شرقي اوروبا حيث يكثر عدد اليهود حيث تخلفت الثورة البورجوازية . وليس هنا مجال البحث المستفيض حول ظاهرة اللاسامية في اوروبا . ولكن التعصب العنصري يحكمه ، كما يقول مكسيم رودنسون ، قانون اساسي ، وهو انه يشتد كلما التقت الفوارق العنصرية — حقيقية كانت او مدعاة — مع فوارق اقتصادية . وقد احترف اليهود في العصور الوسطى تجارة المال والاقراض بالفائدة ، كانوا الرأسماليين في وسط مجتمع اقطاعي فحل بهم سخط الاقطاعيين ورقيق الارض في آن واحد. ولكن حين نمت الرأسمالية في اوروبا الغربية على مستوى المجتمع كله اختفت المشكلة اليهودية ، لان اوروبا الغربية غدت — كما قال ماركس — كلها يهودية ، اي رأسمالية . ومهما يكن من امر ، فان ما يستحق الاهتمام هو ان اليهود المضطهدين ، كانوا يهاجرون قبل قيام الحركة الصهيونية، كغيرهم ممن تضيق بهم اسباب الحياة في اوروبا في القرن التاسع عشر ، ضمن تيارات الهجرة الاوروبية الاساسية : الى العالم الجديد ثم الى استراليا ونيوزيلاندا (١) ... الخ. ولكن الصهيونية حاولت منذ البداية تغيير هذا الاتجاه . وينبغي ان ننبه هنا الى ان الصهيونية في البداية لم تكن تصر على فلسطين بالذات ، وانما كانت تحاول اقامة دولتها ايضا في سوريا . بل ان هرتزل زار مصر سنة ١٩٠٤ ليفاوض الانجليز والخديوي في تنفيذ المشروع في شبه جزيرة سيناء . ومم ثم يتضح ان القضية لم تكن في المحل الاول « ايمانا بالوعد الالهي في ارض كنعان » وانما كانت **رغبة من الصهيونية كقوة استعمارية متميزة في المشاركة في اقتسام تركة الرجل المريض** . كانت الصهيونية تحاول وسط السباق الامبريالي المحموم حول اشلاء امبراطورية آل عثمان ان تقتطع لنفسها نصيبا. وكان ذلك في منطق العصر . وقد حدد هرتزل الامور

---

(١) والدليل على ذلك هو عدد اليهود في الولايات المتحدة الاميركية ، وهو يقارب نصف عدد اليهود في العالم كله .

مؤسسة نوفل للطباعة والنشر

و

« بيت الحكمة »

يقدمان

الحرب العالمية الثانية

للمؤرخ والصحفي الشهير

ريمون كارتييه

(في جزئين)

صدر حديثا

بأوجز عبارة ، حين كتب عام ١٩٠٨ يقول « **ان دولة يهودية في فلسطين او سوريا ستكون امتدادا للحضارة الغربية وحصنا ضد الهمجية الشرقية** » . وهكذا تحدد الطابع المزدوج لدولة اسرائيل قبل انشائها باربعين عاما : جزء من الغرب حضارة وسياسة ونهما استعماريا ، ولكنه جزء متميز بانتمائه الصهيوني وعدم ارتباطه بالتالي بدولة معينة من دول الغرب الاستعماري .

ولكن ثمة امرا اخر يميز تجربة الاستيطان الاسرائيلي عن الاستيطان الاوروبي في جنوب افريقيا او روديسيا مثلا . ذلك ان **التوسع الاقليمي حتمية ملازمة للوجود الاسرائيلي نفسه** . وليس التوسع مرهونا باحتمالات الهجرة المقبلة . وكثيرا ما يقول لنا المثقفون الاوروبيون انه لا ينتظر ان تستمر الهجرة الى اسرائيل بمعدلات مرتفعة نظرا لان الغالبية العظمى من يهود العالم موزعة حاليا بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، ويهود هاتين الدولتين لن يهاجروا الى اسرائيل ، وان اختلفت اسبابهم في ذلك . ولكن ما يفوت هؤلاء المثقفين حسني النية هو ان **اسرائيل بعدد سكانها الحالي مدفوعة بالفعل نحو التوسع** . فالاقليم الذي كانت تسيطر عليه الدولة الصهيونية حتى ١٩٦٧ كان عاجزا عن ان يوفر لسكانه مستوى معيشة يتناسب مع المستوى السائد في اوروبا التي هاجر منها الاسرائيليون . فثلثا الارض صحراء ، والثلث الاخير يعتمد في الري على مطر غير منظم والتربة لم يخصبها طمى . وجوف الارض فقير لا يحتوي على شيء يذكر من الثروات الطبيعية التي تصلح اساسا للصناعة . والسوق المحلية اضيق من ان تستوعب اي انتاج صناعي حديث . ولم تستطع اسرائيل الحياة والتقدم اقتصاديا حتى الا بفضل فيض مذهل من الاموال الاستعمارية لم يسبق له مثيل في اي بلد . فمن المعروف ان اسرائيل قد بدأت حياتها بعملية نهب واسعة النطاق لاموال العرب ، وانها تلقت من الغرب حتى سنة ١٩٦٥ ما يزيد عن سبعة الاف مليون دولار ، اي ما يساوي ٣٠٠٠ دولار لكل فرد من سكان اسرائيل . وكان اكثر من نصف هذا المبلغ غير محمل بأي التزام بالسداد لانه جاء في شكل هبات وتبرعات ومعونات وتعويضات . ولو حصلت الجمهورية العربية المتحدة على النسبة نفسها لكان معنى ذلك معونات تساوي تكاليف السد العالي أربعين مرة !. وفي ضوء تلك الارقام يمكن تقويم تجربة النمو الاقتصادي في اسرائيل التي أصبحت اسطورة في الغرب وفي العالم الثالث . ويكفي أن نضيف هنا أن صادرات اسرائيل لا تغطي الا نصف قيمة وارداتها ، وان ثلث تلك الصادرات عبارة عن ماس مصنع ، أي انتاج صناعة لا أساس لها في البلاد نفسها . ولا يمكن بالطبع ان يستمر فيض الاموال متدفقا بالمعدل نفسه . ومع نهاية التعويضات الالمانية ظهرت معالم ازمة اقتصادية حادة ترتب عليها ان عدد العاطلين زاد في اسرائيل في اوائل سنة ١٩٦٧ عن المائة ألف ، أي حوالي ١٢ ٪ من القوى العاملة . ولكل هذا فان اسرائيل ليس امامها من خيار الا التوسع أو الانهيار الاقتصادي والبشري . فامام البطالة وانخفاض مستوى المعيشة لا بد أن يهاجر من اسرائيل كل أولئك الذين يرفضون أن يعيشوا في مستوى أقل من الذي عرفوه في أوروبا . وسيكون أول المهاجرين بالطبع من الفنيين والعلماء والخبراء الذين ترحب بهم أوروبا وأمريكا . أي أن الهجرة لن تكون تكذيبا فقط لدعوى العودة ، وانما اضعافا لاسرائيل في أهم قواها الحيوية .

على أن التوسع الاقليمي له حدود ودونه مصاعب . فاسرائيل لا تتوسع في خلاء ، وانما في أرض تعيش عليها أمة ذات حضارة عريقة ، قد خسرت في تاريخها الطويل معارك كثيرة ، ولكنها كانت تنتصر في النهاية وتحافظ على وجودها وشخصيتها القومية . ومن ثم فان اسرائيل تسعى في الوقت نفسه الى **السيطرة الاقتصادية على الشرق العربي** . فالحلم الذي يردده حتى بعض أولئك الذين يتكلمون في اسرائيل عن السلام مع العرب هو تحقيق « التكامل الاقتصادي » للشرق العربي على أساس ان تكون اسرائيل قاعدته الصناعية وتكون الاقطار العربية مورد المواد الاولية وسوق تصريف المنتجات الصناعية . فالصناعة في اسرائيل في أمس الحاجة الى المواد الاولية التي تنتجها البلاد العربية تستثمر فيها خبراتها الفنية ورؤوس الاموال الاستعمارية الضخمة التي تستطيع تعبئتها . وسوق اسرائيل الداخلية كما قلنا ضيقة لا تستوعب انتاجا يذكر ، والمنافسة في الاسواق الاوروبية عسيرة ، ومن ثم كان أمل اسرائيل هو أن تستوعب البلاد العربية انتاجها الصناعي . بل أكثر من ذلك يمكن أن تصبح اسرائيل بمثابة « كنتوار » للاحتكارات العالمية تقيم فيها مصانع للتجميع والتركيب والتجهيز للكثير من منتجاتها التي تبيعها بالفعل في الاسواق العربية . ولا شك ان للبترول مكانة خاصة في خطط اسرائيل . فالصهيونية العالمية تريد أن تكون شريكا في استغلال البترول العربي ، وأن تكون اسرائيل قاعدة لتصديره ومركزا لتصنيعه تستقر فيه صناعة بتروكيمائية ضخمة تغطي احتياجات المنطقة كلها . وبعبارة أخرى تعرض علينا اسرائيل كأساس للسلام والوئام « الميثاق الاستعماري » ، Pacte Colonial الذي فرضه الاستعمار على كل المستعمرات . والخلاف في اسرائيل بين المتطرفين والمعتدلين ليس خلافا حول الهدف ، وانما حول الوسائل . فالمتطرفون يريدون فرض الميثاق الاستعماري بالقوة ، بأساليب الاستعمار القديم . أما المعتدلون فيرون أن هذا الاسلوب يجافي روح العصر ومن ثم لا بد من الاعتماد على أساليب الاستعمار الجديد . ومن المعروف أن هذه الاخيرة تقوم على الروابط الاقتصادية التي تفرضها الدولة الاستعمارية عن طريق التسلل الى اقتصاد البلاد وتنمية فئات اجتماعية موالية لها وبث

ـ التتمة على الصفحة ٧٣ ـ

الى أين المصير

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥ ـ

الفرقة والشقاق على أسس قومية او اقليمية او قبلية .. الخ . ولهذا فان المقاطعة العربيـــة لاسرائيـــل ، ورفض الاعتراف بها والاصرار على عدم التسليم بالامر الواقـــع ليست مجرد موقف غضب للكرامة المهدرة والحق السليب فحسب ولكنها وسائل فعالة فيمقاومة المخطط الصهيوني، بل انها كانت أنجح ما استخدم العرب من وسائل حتـــى الآن .

فالصهيونية العالمية تريد اذن ، فـي التحليل الاخير اقامة نوع من الدولة الاستعمارية تسيطر على المنطقة كلهـا اقتصاديا على الاقل كشريك صغيـر للامبريالية العالمية ، تخدمها وتستفيد منهـــا . وككـــل مشروع للاستعمار الاستيطاني ، لا بد للمخطط الصهيوني مـــن ايديولوجية تضمن تحمس القائمين به لتنفيذه ، وتحاول تبريره أمـام الرأي العام العالمي . فالغزو الاوروبي للشرق العربي فـي القرون الوسطى تستر وراء الصليب . وكذلـــك فعـــل « الكونكويستادور » حين دمروا حضارة الانكا والازتك في أمريكا الجنوبية والوسطى . وفي شمالي أمريكا كان أولئك الذين غادروا أوروبا في القرن التاسععشر ليبنوا في العالم الجديد مجتمعا أفضل لا يتورعون باسم هذا المجتمع عـن القضاء على الهنود الحمـر . وغـــزا الاستعمار الاوروبي أفريقيا تحت شعار نشر المدنية ... الخ .

وأول سلاح في الترسانة الايديولوجية للصهيونية هو **العنصرية** . ونحن في الشرق العربي ألفنا دائما أن ننظـر الى اليهودية كدين ، كأحد الاديان السماوية الكبرى التـي تمتع معتنقوها بوضع خاص في دولة الاسلام . ولهـــذا يصعب علينا أن نتصور تميز اليهودي بشيء آخر غيـــر الدين . أما في أوروبـــا فان الواقـع التاريخي لاضطهاد اليهود ، وعزلهم عن المجتمع ، والزامهم بالمعيشة مجتمعين بعيدا عن بقية البشر ، أبقى الى أمـــد بعيد عناصر تمييز للاقليات اليهودية واحساسا بهذا التمييز عنـــد الاغلبية المسيحية . وقد نجحت الثورة البورجوازية الديمقراطية في تصفية هذا الوضع الى حد بعيد فـي أوروبا الغربية . ولكن تخلف الثورة في شرق أوروبا ، حيث تجمع تاريخيا العدد الاكبر من يهود أوروبا ، حال دون تحقيق مثل هـذا الاندماج . ولذلك تأكد التمايز اليهودي . وكان يمكـن أن يؤدي انتصار الثورة الاشتراكية فـي الاتحاد السوفياتي الى تصفية هذا الوضع الشاذ . ولكـن محاربة الصهيونية العالمية لاندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها من جهة وتجدد الاضطهاد العنصري على يد النازية من جهـة أخرى أعادت طرح المشكلة اليهودية برمتها وبأعنف صورها على الضمير الاوروبي . ومن ثم اصبح عـــدد كبير مـن الناس الشرفاء يعطفون على رغبة اليهود في أن يكون لهـم موطن يلجأ اليه من يحس منهم بأنه لا يستطيع الاندماج في الوطن الذي يعيش فيه . وتكتفي الصهيونية عادة بهـــذا القدر الادنى من العطف على أهدافها . ولكنها احيانا تطرح القضية على أساس اعمق فتزعم أن اليهود يشكلون قومية متميزة لان النظرة العنصرية الخالصة غيـــر مقبولة مـن الرأي العام العالمي . والواقع أن دعـــوى **القومية اليهودية** المتميزة ليس لها أي سند واقعي أو علمـــي فليس بيـن « الفلاشة » في الحبشة « وبني اسرائيل » في الهند من ناحية ، ويهود باريس أو نيويورك مـن ناحية أخرى أدنـى صلة قومية مشتركة من تعايش أو لغة أو تراث فكـــري وحضاري . وربما كانت الحالة الوحيدة التـــي تستدعي النظر هي حالة يهود روسيا القيصرية وشرقي أوروبا الذين كانوا يعيشون في تجمعات كبيرة فـــي مناطق متقاربة ، وكانت لهم لغة خاصة هي « اليدش » عاشت عـدة قرون وازدهرت كلغة ثقافة . وكان من المتصور أن يكـون هؤلاء نواة قومية مستقلة . ولكـــن الصهيونية العالمية ناضلت بغير هوادة لتقضي على هذه الظاهرة وكافحت لاحياء لغة ميتة هي العبرية ولتقتل لغة حيـــة هي اليدش . فكمـا حاربت الصهيونية العالمية اندماج اليهود فـــي المجتمعات التي يعيشون فيها ، حاربت تطور وضع جماعات منهم الى قومية متميزة لان مثل هذا التطور كان من شأنه أن يهدم الفكر العنصري من أساسه . ومهما يكن من الامر ، فـان الاساس العنصري سلاح في يد الصهيونية لتعبئة اليهـود في كل مكان لمساندة دولة اسرائيل . والصهاينة لا يكتفون بالتعاطف الطبيعي لدى اليهود بـل يلجأون لاشكال ابتزاز سافرة ويفرضون على كثير مـن اليهود تأييـد اسرائيـل فرضا بوسائل تصل الى حـــد التهديد بحرق المتجـــر وتتضمن بالطبع المقاطعة الاقتصادية . ومن ثم فان اليهود الذين يعارضون الصهيونية يواجهون بالفعل مصاعب جمة ويستحقون التقدير لشجاعتهم . ويبقى بعد ذلك ان تأييد « الدياسبورا » عنصر أساسي فـــي دعم اسرائيل يأتـي مباشرة في المرتبة التالية للتأييد الاستعماري .

كذلك **تستغل الصهيونية الديـن أسـوأ استغلال** . ويبدأ ذلك بمحاولة تأسيس الدعوة لانشاء اسرائيل ، ثـم لتبرير وجودها ، بالحديث عن الوعد الالهي لبني اسرائيل بأرض كنعان . فحيث لا يقبل المنطق الحديث عـن العودة الى أرض كان يسكنها يهود قبـــل ألفي عـــام ، تخاطب الصهيونية العاطفة الدينية لتؤكد لليهود أنـــه لا بد مـن « العودة » . ويؤكد طابع استغلال الدين أن عددا من كبار قادة الصهيونية لا دينيون ، وانما هم يستخدمون الديـن عن وعي كأسلوب لتعبئة بعض الجماهير . كما يؤكد ذلـك أيضا معارضة بعض اليهود لدولة اسرائيل علـــى أساس ديني ، باعتبار أنه لم يسبق قيامها ظهـــور المسيح . ولا يقف استغلال الدين عند هـــذا الحـد . فالصهيونيون المتعصبون يجدون في التوراة نصوصا تبرر كل جرائمهم . فاقامة دولتهم في وطن الغير ، أمر طبيعي ، لان « يهـو » وعد بني اسرائيل بأرض كنعان ، أي بأرض مملوكة لغيرهم، **وقادهم « الى مدن عظيمة لم تبنها ، وبيوت مملـوءة كـل خير لم تملأها ، وآبار محفورة لم تحفرها ، وكروم زيتون**

لم تغرسها ، وأكلت وشبعت » (**تثنية : ٦ ـ ١١ ، ١٢**) أليس في هذا تبرير للاستيلاء على دور العرب «وبياراتهم» وأرضهم ؟ وحين يقومون بطرد العرب من فلسطين يستشهدون بما جاء في سفر الخروج : **« فاني أدفع الى أيديكم سكان الارض فتطردهم من أمامك . لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهدا لا يسكنوا في أرض لئلا يجعلوك تخطىء »** (خروج : ٢٣ ـ ٢٢ ، ٢٣) . أما المطامع التوسعية فسندها عندهم : **« لنسلك أعطى هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر الفرات »** (تكوين : ١٥ ـ ١٨) . ولا غرابة بعد ذلك أن يكون جوهر سياسة اسرائيل ترك مشكلة الحدود غير محسومة أبدا ، لانها لا تسلم الا بحدود « اسرائيل الكبرى » من النيل الى الفرات . على ان استغلال الدين لا يقتصر على التأثير على جماهير اليهود ، وانما يمتد على يد الصهاينة الى بعض المسيحيين . فمن المعروف أن المذهب البروتستانتي قد تميز بالدعوة الى دراسة العهد القديم ، وتمثل أحكامه والتأثر بها . ومن ثم تستغل الصهيونية هذه الاوضاع في استدرار عطف البروتستانت على اسرائيل باعتبار أن قيامها واعادة بناء الهيكل بشير بظهور السيد المسيح . وقد نجحت بالفعل في زيادة العطف على اسرائيل في بريطانيا وأمريكا ، كما ان مراجعة موقف الفاتيكان من مسؤولية اليهود عن صلب المسيح تدخل في اطار التقريب من المذاهب المسيحية ، فضلا عن التأثير المباشر للصهيونية على الكنيسة الكاثوليكية نفسها .

واخيرا تستخدم الصهيونية السلاح الايديولوجي التقليدي للاستعمار ألا وهو **« التفوق الاوروبي »** . لقد آمنت أوروبا وأمريكا الشمالية لعشرات السنين بأنها موطن المدنية ، وأنها أرقى شعوب العالم ، وأن رسالتها التاريخية هي تحضير البشرية . وما زالت في الغرب دوائر ترى في تحرير السود والصفر وزيادة عددهم خطرا داهما يهدد المدنية الاوروبية وحضارة الانسان كلها ، ويقدم الصهاينة اسرائيل للغرب على أنها جزء منه ، تتجسد فيها حضارته في مواجهة العرب . ولهذا نجد القوى اليمينية المتطرفة وأصحاب الاتجاهات الفاشية والعنصرية في أوروبا وأمريكا تتبنى قضية اسرائيل ، وتقف الى جوارها ضد العرب . بل اننا نجد النازيين السابقين والجدد يتفانون في خدمة اسرائيل ومعاونتها والتجسس لحسابها ، لا تكفيرا عن الجرم أو شعورا بعقدة الذنب كما يقال في ألمانيا الغربية ، وانما استمرارا في الموقف العنصري الاصيل . لقد قالت النازية ان اليهود جرثومة تهدد الحضارة الاوروبية لانهم ليسوا أوروبيين ، بل ساميون أي شرقيون . وهجرتهم الى اسرائيل هي بالتالي استجابة لمنطق النازية العنصري . ومعاونة النازيين لهم تأكيد لتخليص أوروبا منهم واستخدامهم لهم في مواجهة هبة الشرق العربي التحررية . ان العنصريين يلتقون دائما . وحكام روسيا القيصرية قد أيدوا هرتزل والدعوة الصهيونية . وكبار القادة الصهيونيين كانوا على صلة بهتلر وطغمته . وفيما وراء الدوائر المتعصبة والرجعية ، تجد اسرائيل دائرة واسعة من العطف على فئات كثيرة ليست بالضرورة ذات موقف رجعي في بلادها ، ولكنها قد ترسب في ضميرها تفوق الغرب وتشجيع كل ما هو أوروبي . والواقع أن مصائر اسرائيل بيد يهود أوروبيين هم أوروبيون قبل كل شيء ، يقيمون بالفعل دولة مصطنعة هي امتداد لاوروبا في قلب الوطن العربي . وهذا ما يلقي الضوء على رفض هؤلاء أن « يعيشوا كجزء من أهل المنطقة » كما يحلم بعض مثقفي اليسار الاوروبي . انهم مستوطنون أوروبيون لهم عقلية المستوطن التي لا تتصور العلاقة بأهل البلد الاصلية الا في صورة قهر وطرد وابادة أو سيطرة واستغلال .

المخطط الاستعماري

ويلتقي المخطط الاستعماري ، في خطوطه الرئيسية، مع المخطط الصهيوني . فالغرب اقتسم تركة الرجل المريض في نهاية الحرب العالمية الاولى . ولم يكن فرض سيطرة الغرب على بلاد العرب أمرا سهلا . فقد اضطرت بريطانيا في سبيل مد سلطانها على هذه المنطقة الى الالتفاف من حول الثورة العربية ، وخداع قيادتها الاقطاعية ، وتغذية الاتجاه الانفصالي في مصر ، وقبول اقتسام الغنائم مع فرنسا . ومع ذلك فما كادت قدم الاستعمار تستقر حتى اندلعت الثورة الوطنية في مصر وسوريا والعراق ، ثم تجددت في المغرب العربي . ولهذا كان طبيعيا أن يقتنع الاستعماريون ، وقد أجهزوا على الرجل المريض بدعوة هرتزل ، وان يتيحوا للصهيونية ارساء قاعدة للوجود الغربي في قلب الوطن العربي. وليس من قبل المصادفة أن يعاصر وعد بلفور مواثيق ماكماهون مع الشريف حسين ومعاهدة سايكس ـ بيكو مع فرنسا . وكانت هزيمة الفاشية العالمية نذيرا للاستعمار بتفجير حركة التحرر الوطني في العالم الثالث كله . وكان طبيعيا أن تدوي الثورة في أرض العرب التي لم تخمد نيرانها فيها طوال فترة ما بين الحربين . وكان الاستعمار يدرك أنه سيضطر الى تنازلات . وقد أرغمت فرنسا بالفعل على الانسحاب من سوريا ولبنان وأطاح الشعب المصري بمشروع صدقي ـ بيفن في حين أسقط الشعب العراقي معاهدة بيفن ـ جبر . وفي هذه الظروف أعلنت بريطانيا تخليها عن الانتداب في فلسطين بعد أن مهدت السبيل لقيام اسرائيل وبصفة خاصة بعد أن وفرت للوكالة اليهودية جيشا حديثا مدربا ومسلحا هو الهاجاناه . وكان مجرى الاحداث في الربع قرن الماضي في اتجاه المزيد من الانتصارات لحركة التحرر العربي ، والتصفية لقواعد الاستعمار في مصر والعراق والاردن والجزائر واليمن الجنوبي ... وهكذا بدت اسرائيل أكثر فأكثر **التجسيد الحي للوجود الاستعماري الغربي** في وسط منطقة تعج بالثورة الوطنية التي تفتحت أمامها آفاق التحول الاشتراكي . وكان طبيعيا أن يحرص الغرب على الوجود الاسرائيلي ويدعمه . فصدر سنة ١٩٥٠ التصريح الثلاثي

بضمان الاوضاع القائمة بين دول المنطقة . وتعاونت بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية والولايات المتحدة على تزويد اسرائيل بكل ما تحتاج اليه في سخاء لا يكفي لفهمه نفوذ الصهيونية فيها ، وانما يفسره في الاساس احساس تلك الدول بأنها تدافع عن قضية تهمها ، وتصون مصالح للاستعمار الغربي أو « للعالم الحر » كما يقولون .

ولكن الوجود الاسرائيلي قد اثبت انه قادر على أداء خدمات جليلة للاستعمار ، زادت من مساندة الاستعمار للدولة الصهيونية . فالكفاءة العسكرية التي تميزت بها اسرائيل أضفت بعدا جديدا على دورها في المنطقة . لقد رشحتها تلك الكفاءة لكي تكون **كلب الحراسة الشرس** الذي يحمي مصالح الاستعمار . ففي كل فترة مد لحركة الثورة العربية كانت اسرائيل تتحرك لتضرب وتوقف التقدم . فالحرب التي ولدت منها اسرائيل وتوسعت لم تكن تعني بالنسبة للعرب مجرد فقد معظم أرض فلسطين ، ولكنها كانت الفرصة المواتية للاستعمار والرجعية لضرب الحركة الوطنية واعتقال العناصر الثورية واشاعة الارهاب بقصد فرض شكل جديد من أشكال الارتباط بالاستعمار . لقد كانت تلك الحرب نكسة كبرى للعمل الوطني كسرت موجة الثورة العارمة التي هزت ارجاء الوطن من قسطنطينة الى بغداد . وفي سنة ١٩٥٦ ثبتت الثورة الجزائرية اقدامها وبدأ الكفاح المسلح يأخذ طابع الحرب الشعبية الشاملة ، في حين كانت القاهرة تقود الحملة ضد حلف بغداد وتعلي راية الحياد الايجابي وتبدأ التحرر بتأميم قناة السويس . وعندئذ أطلق الاستعمار كلب الحراسة من عقاله وخلفه وحوله قوات بريطانية وفرنسية . وكان هدف العدوان هو ضرب الثورة في مصر واجبارها على الخضوع للضغط الاستعماري وتصفية ثورة الجزائر . في سنة ١٩٦٧ جاء العدوان الاسرائيلي بعد اخفاق محاولات الانقلاب في مصر وسورية ، وبعد الصمود المصري أمام الضغوط الامريكية ، وبعد معركة سورية مع الاحتكارات البترولية ، وبعد انتصار الثورة في جنوبي اليمن ودعمها في شماليه ، وبعد التقارب الواضح بين الدول العربية التقدمية . وهذا الدور الذي تلعبه اسرائيل يكسبها أهمية خاصة في نظر واشنطون . فأمريكا التي تريد ان تقوم بدور الشرطي في حماية مصالح الاستعمار العالمي وضرب حركات التحرر تحلم بوجود عدد من الدول تعتمد على مساعدات أمريكا الاقتصادية والعسكرية والسياسية وتتولى عنها الصدام مع قوى التحرر . ولم تنجح هذه السياسة الا في اسرائيل . فهي الدولة الوحيدة التي ترحب بالمساعدات الامريكية ويغمرها العرفان بالجميل الامريكي . وبها نظام حكم قوي ومستقر ، ولها جيش ضخم يبدأ تدريبه من الطفولة وينشأ على العدوان وتمجيد العنف ويسعده ان يلعب دور « الانكشارية » في خدمة الاستعمار . ان واشنطون مستعدة لدفع الثمن لمن يحمي مصالحها في البلاد العربية ، وفي مقدمتها البترول .

وفيما وراء المصالح المادية الملموسة لهذه الدولة الاستعمارية أو تلك ، يلوح الهدف الاستراتيجي للغرب الاستعماري، **الا وهو الحيلولة دون الثورة العربية ودون تحقيق وحدة الامة العربية في دولة متحررة ، ديمقراطية وتقدمية** . ان الغرب يرى في اسرائيل جزءا منه زرعه زرعا في قلب الوطن العربي ليقسم الارض العربية ، ويكون ركيزة أمامية تحد من انطلاق الثورة العربية وتستنزف الكثير من مواردها . ان الجو الذي صاحب العدوان الاسرائيلي في الغرب كان جو « حرب صليبية » يعيد الى الاذهان أيام بربروسة وقلب الاسد ولويس التاسع . اننا كثيرا ما ننسى حقيقة الصدام الحضاري بين الغرب والوطن العربي . ان دعاة الحضارة الغربية يرون أنها الحضارة الاسمى (او الحضارة الوحيدة الجديرة بهذا الاسم) ، ولدت في اليونان ، وانتصرت وانتشرت على يد الرومان ، ثم تفجرت ينابيعها من جديد بعد ظلمات العصور الوسطى في أوروبا الغربية ، ثم بلغت أوجها اليوم في الولايات المتحدة الامريكية . ولكن بلادنا هي التكذيب الصارخ لهذا التبسيط العنصري لتاريخ الحضارة البشرية . لقد كان في وسع الغرب أن يتجاهل الصين والهند — على عراقة الحضارة فيهما — نظرا لبعدهما ولتأثيرهما المحدود في تطور بقية البشرية . أما بلادنا فهي على الساحل المقابل من البحر المتوسط ، وفيها ولدت أقدم الحضارات على ضفاف النيل والفرات وفي شمالي سورية وجنوبي جزيرة

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

١ — نظام الإسلام (العقيدة والعبادة)
للاستاذ محمد المبارك

٢ — المجتمع الانساني في ظل الاسلام
للشيخ محمد ابو زهرة

٣ — نظام الحكم في الاسلام
للدكتور محمد عبد الله العربي

٤ — مدى حرية الزوجين في الطلاق
في الشريعة الاسلامية (دراسة مقارنة)
للدكتور عبد الرحمن الصابوني

٥ — نظام الاسرة وحل مشكلاتها في ضوء الاسلام
للدكتور عبد الرحمن الصابوني

٦ — الوصايا الخالدة
جمع وتحقيق عبد البديع صقر

العرب . وحين سيطرت أوروبا الرومانية على هذه المنطقة لم تستطع ان تغير من وجهها ، ولا أن تطمس حضارتها أو تصبغها بصبغة الرومان . بل ان المسيحية التي ظهرت في أرض فلسطين هي التي غزت الامبراطورية وقوضت دعائم حضارتها القائمة على الـرق . وحين صادرت الدولة الرومانية دين الناصرة وبيت لحـم لحسابها ، وحاولت استغلاله في دعم سيطرتها ، قاومهـا مسيحيو الشرق ، وفي مقدمتهم أقباط مصر . ثم ظهر الاسلام نورا وقـوة فتحررت الارض ، وقامت دولة كبرى ذات حضارة زاهرة، رفضت التعصب العنصري والديني ، وعرفت من التسامح ما لم يسبقها اليه أحد ، تمثلت ما سبقها مـن حضارات ، واخرجت للبشرية اعلاما فـي الفكر والفلسفة والعلوم . وحين أخذ التفكك يدب فـي الدولة العربيـة الاسلامية ، سارعت أوروبا لغـزو الشرق العربـي متسترة وراء الصليب . وغلب العرب في مواقع كثيرة ، ولكنهم نجحوا في النهاية في رد الصليبيين على أعقابهم مدحورين . ولم تنس أوروبا الهزيمة ولا فقدت الطمـع . وحين دخل المارشال اللنبي القدس فـي نهاية الحرب العالمية الاولى ، كانت أولى كلماته : « الآن قـد وضعنا حـدا للحروب الصليبية » . ان بلادنا كانت في العصر الحديث آخر بـلاد وقعت في قبضة الاستعمار الغربـي ، وكانت أول بـلاد تمردت عليه وتخلصت منه . وهي من البلاد النادرة التـي لم يستطع ان يغير من شخصيتها القومية ، أو يقتلع لغتها، أو يضيع معالم حضارتها . ونجاح الثورة العربيـة يعنـي قيام دولة كبرى ، لها مـن عدد السكان واتساع الرقعة والموقع الجغرافي وغنى الموارد والتـراث الحضاري مـا يجعلها قادرة ، رغم ما تعاني من تخلف في الحاضر ، علـى أن تتبوأ في السياسة العالمية مركزا مرموقا ، وأن تقطع في طريق التقدم شوطا بعيدا في زمن قصير . وتجربة الصين الشعبية ، التي دخلت عصر الذرة بعد أقل من عشرين عاما من انتصار ثورتها ، دليل ساطع على القدرات الكامنة لدى الشعوب الكثيرة العدد العريقـة الحضارة . والغـرب الاستعماري يدرك هذا كله . ولذلك فهو لا يألو جهدا فـي التربص بحركة التحرر العربي ، ويستخدم كل مـا تحتويه ترسانته من أسلحة الاستعمار قديمه وجديده ، لينال منها داخليا وخارجيا : يستنزف قواهـا وموادها ، ويفـرق صفوفها ، ويحاول النيل مـن عزيمتها . واسرائيل هـي القطعة المختارة في لعبة الاستعمار الآثمة .

استراتيجية على مستوى الصدام الحضاري

وهكذا تتضح حقيقة التحدي المروع الذي تواجهـه الامة العربية . فاسرائيل عـدوان مستمر علـى الشعب العربي في فلسطين ، وهـي حاليا عدوان علـى الشعوب العربية المجاورة لفلسطين ، وهي مستقبلا عدوان على كل الشعوب العربية في المشرق والمغرب على السواء (فمطامع اسرائيل الافريقية وخبرة فريق من سكانها بالمغرب العربي أمر معروف) ، وهذا كله يندرج في التحليل الاخير فـي **اطار مخططات الاستعمار الغربي ضـد الوطن العربي ، ويشكل داخلها جزءا متميزا بأطماعه الخاصة وقدراتـه الذاتية .**

وفي ضوء هذا الفهم ينكشف **سراب الواقعية** ، أيـا كان اللون الذي تظهر به . فالعدوان علـى مطار بيروت وضع حدا ، أو ينبغي أن يضع حدا ، لكل تفكير « واقعي » مبني على أن حسن العلاقة بالدول الغربية ضمان لاي بلـد عربي ضد العدوان الاسرائيلي . والدول العربية المنتجـة للبترول تقع في وهم خطير اذا ظنت ان مصالح الاستعمار البترولية تقيها ضد مطامـع اسرائيل ، لان البترول نفسه هدف أساسي للصهيونية ، والاحتكارات العالميـة للبترول مفتوحة أمام النفـوذ الصهيوني ، والاحتكارات الامريكية بالذات يسعدها أن تركز عمليات التكرير والتصنيع فـي اسرائيل لتصدر لاوروبا منتجات بترولية بـدل تصدير البترول الخام . كذلك يخطىء بعض المثقفين الذين تؤثـر فيهم الدعاوى القائلة بأن سياسة العداء لاسرائيل مهـدت الطريق لوثوب العسكريين الى السلطة في عدد من البلدان العربية ، والى اهـدار الحريات الديمقراطية ، وتحميـل الاقتصاد القومي بأعبـاء التسلح الجسيمة علـى حساب التنمية الاقتصادية . ذلك أننا لا نملك أن نسالم اسرائيل، لان السلام الاسرائيلي كالسلام الاستعماري لا معنى لـه الا السيطرة من جانبها والخضوع المتزايد من جانبنا . وعبثا يقال ان السياسة العربية تستعدي اسرائيل وتحملها على العدوان حملا بتهديدها المستمر لوجودها . فقـد رأينا ان العدوان جزء من طبيعة هذا الكيان الصهيوني الاستعماري. وهنا يصدق كلام ماوتسي تونج حين يقـول : « انـك لا تستفز النمر ، لان النمر مستفز بطبعه » . ولهذا فلـن يجدي شيئا ان نسلم بالامـر الواقع ، ونتقبل الوجـود الصهيوني في جزء من أرض الوطن لندخل معه في نوع من المنافسة السلمية . ولا يجوز الاحتجاج هنـا بمنطـق التعايش السلمي في المجال الدولي ، لانه لا تعايش سلميا بين الاستعمار وضحاياه، وانما التعايش السلمي والمنافسة السلمية تكون بين النظام الاشتراكي والنظـام الرأسمالي المستقر كل منهما في عدد مـن الـدول المستقلة ذات السيادة .

ومن ناحية أخرى ، لا بد من الاقرار بأن هذا **الصدام الحضاري الذي نواجهه يفرض علينا نضالا طويلا وشاقا ، متشعبا في مجالاته ، متنوعا فـي أساليبه ، مريـرا فيمـا يستوجب من تضحيات** . فتصفية القاعـدة الصهيونيـة الاستعمارية لا يمكن أن تتم بين يوم وليلة . اننـا يجب ألا نخدع أنفسنا عن الواقع المرير . بل يجب أن ندرك تمامـا أنه في حدود علاقات القوى الحالية في المنطقة لا يستطيع العرب سحق العسكرية الاسرائيلية ، حتـى بدون تدخل مباشر من القوات الاستعمارية . وعبثـا نحاول أن ندور حول هذه الحقيقة برفع شعار الحرب الشعبية ، ذلـك أن الحرب الشعبية في جوهرها حرب ثورية يخوضها شعب

ضد جيش احتلال أجنبي أو جيش رجعي محلي . وهدفها في الحالة الاولى اقناع المحتل باستحالة الاستمرار في الاحتلال لان تكلفته باهظة تفوق بكثير كل المزايا التي يحصل عليها المستعمر منه . وهذا بالدقة ما حدث في الجزائر فحمل حكومة ديجول على المفاوضة ثم الانسحاب. وهذا ما يحدث اليوم في فيتنام . فالنضال البطولي للشعب الفيتنامي لم يقذف بالامريكيين في المحيط ، ولكنه أثبت لهم استحالة استمرار العدوان وتحقيق اهدافه . أما في الحرب الاهلية ، فان الحرب الشعبية اما ان تفضي الى انهيار النظام الرجعي من الداخل ، واما أن تتحول الى حرب نظامية . وجيوش ماو التي وجهت الضربة القاضية الى تشانج كاي تشيك واحتلت بكين وكانتون وشنغهاي كانت جيوشا نظامية . اما اسرائيل فانها تمركز قوتها الضاربة داخل حدود دولية معترف بها وفي اطار سيطرتها العددية . وحتى اذا تخيلنا مواجهة عامة للاستعمار واسرائيل بحرب شعبية على نطاق الشرق العربي كله ، فان الاعداد لها وتوفير ظروفها داخل الدول العربية أمر يستغرق عدة سنوات ، كما أن الحرب الشعبية نفسها ليست حربا خاطفة وانما هي بطبيعتها سنوات قتال طويلة . ولكل ذلك فلا بد أن نتخلى عن نفاد الصبر وقصر النفس وأن نهيىء أنفسنا لنضال طويل ومرير . ولنا أن نتمثل تجربة العدو الصهيوني الذي رسم استراتيجية على مدى قرن ، فقد مرت اكثر من عشرين سنة بين تحديد الصهيونية لهدف اقامة دولة في اسرائيل وبين الحصول على وعد بلفور ، ومرت ثلاثون سنة بين الوعد المشئوم واقامة الدولة بالفعل . ولم يكن كل ذلك الا خطوة أولى .

وما دام الصراع طويلا ومريرا بهذا المدى فلا بد له من استراتيجية . لا بد له من تخطيط واضح لهدف ، طويل المدى ، يحكم كل المواقف التكتيكية . أما الهدف فيجب أن نتفق عليه ونوحد رأي غالبية العرب حوله ، وهو لا يمكن أن يكون الا : القضاء على القاعدة الصهيونية الاستعمارية . وليس في هذا الهدف بحال تصفية سكان اسرائيل عضويا ، أو القاؤهم في اليم أو اخضاعهم لاي تمييز عنصري أو قهر ثقافي من أي نوع . ولما كان هذا الهدف بعيدا ، فان من الطبيعي ألا نملك منذ الآن تحديد اشكال محددة وأساليب عملية يتحقق في اطارها ، وانما كل ذلك يتحدد عمليا حين تنضج الظروف لتحقق الهدف وتحت تأثير تلك الظروف بالذات . لقد قبلت الثورة الجزائرية من اتفاقيات افيان بقاء المستوطنين الاوروبيين والاقرار لهم بالحق في اختيار الجنسية الجزائرية أو الاحتفاظ بالجنسية الفرنسية أو التمتع لمدة ثلاث سنوات بالجنسيتين معا . وبالرغم من ذلك غادر المستوطنون أرض المليون شهيد . ومهما يكن من امر فأننا نعتقد ان الصياغة التي نقدمها تكفي لتحديد هدف النضال العربي بالقدر الذي يسمح لنا باتخاذ المواقف التكتيكية والمرحلية على أفضل وجه تتيحه ظروف كل مرحلة ، وفي ضوء الهدف الاستراتيجي .

وكل ما نملكه الآن هو تحديد عناصر الاستراتيجية العربية . وفي اعتقادنا أنه يمكن تحديد أهم تلك العناصر على الوجه الآتي :

١) المحاصرة ، أي محاصرة اسرائيل حتى تتم تصفية وضعها كقاعدة استعمارية صهيونية . فمحاصرة المنطقة الموبوءة أول اجراء وقائي تفرضه ضرورات حماية الوطن له . وكوبا لا تستطيع مرحليا تصفية قاعدة جوانتنامو ، ولذلك فهي تحاصرها . وهذا الحصار يقتضي قبل كل شيء رفض الاعتراف القانوني باسرائيل ، وعدم التسليم بشرعية وجودها ، وبالتالي عدم التفاوض معها . وليس في هذا ما يمكن أن يسمى سياسة النعامة . فنحن لا ننكر الوجود المادي لاسرائيل ، وموقفنا الفعلي منها هو موقف الاعتراف الواقعي الذي تمثل في توقيع اتفاقيات الهدنة وفي الجلوس معها في المحافل الدولية . ولكن الاعتراف القانوني معناه التسليم بشرعية العدوان . وهذا ما يجب أن نرفضه في اصرار . ولا يوجد في قواعد القانون الدولي ما يلزمنا به . ويجب أن نقاوم أي ضغط من أية جهة يرمي الى انتزاع هذا الاعتراف . وأول تطبيق عملي لفكرة الحصار هو **المقاطعة الاقتصادية** . وقد رأينا أن هدف اسرائيل هو في النهاية الاستعمار الاقتصادي

شعر

من منشورات دار الاداب

		ف. ل
● الاعاصير	للشاعر القروي	٢٥٠
● وجدتها	لفدوى طوقان	٢٠٠
● وحدي مع الايام	» »	٢٠٠
● اعطنا حبا	» »	٢٥٠
● امام الباب المغلق	» »	٢٠٠
● لم يبق الا الاعتراف	لاحمد ع. حجازي	٢٥٠
● ديوان ابراهيم	لابراهيم طوقان	٣٥٠
● في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
● حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
● احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● اقول لكم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠
● الناس في بلادي	لصلاح عبد الصبور	٢٠٠
● مأساة الحلاج	لصلاح عبد الصبور	٣٠٠
● فلسطين في القلب	لمعين بسيسو	٢٠٠
● كلمات فلسطينية	لحسن النجمي	٢٠٠
● بيادر الجوع	للدكتور خليل حاوي	٣٠٠
● سفر الفقر والثورة	لعبد الوهاب البياتي	٢٥٠
● الحياة الحب	لابراهيم محمد نجا	٣٠٠

للمنطقة . ومن ثم يجب أن نسد كل المنافذ أمام محاولات التسرب الاسرائيلية . ويلي ذلك أهمية التوعية بالخطر الصهيوني الاستعماري وضرورة الاستعداد لمواجهة احتمالات العدوان في أي لحظة .

٢) **دور شعب فلسطين** ، في النضال من أجل حقه المشروع في وطن مستقل . ان أهم ظاهرة ايجابية في فترة ما بعد هزيمة ١٩٦٧ هي بروز دور الشعب الفلسطيني نفسه . واسرائيل لا يمكن أن تستقر وأن يهدأ لها بال ، والشعب الذي طردته من أراضيه يطالب بحقه ويناضل من أجله . ولو نجحت الصهيونية والاستعمار في تصفية القضية الفلسطينية بأي شكل من الاشكال ، نكون قد خسرنا أهم معاركنا في هذا المجال . والمقاومة الفلسطينية ليست العمل الفدائي وحده . ان بطولة الفدائيين يجب ألا تلهينا عن أشكال المقاومة الاخرى . فالاضراب ، ورفض التعاون مع السلطات الاسرائيلية ، والمظاهرات الشعبية ... الخ أساليب أساسية في المقاومة . بل ان مجرد البقاء في الارض والصمود لمحاولات الطرد تعد في مواجهة الاستعمار الاستيطاني سلاحا حاسما .

٣) **ضرب الاستعمار في أضعف مواقعه** ، وما دمنا نسلم بالترابط الوثيق بين مخطط الصهيونية وخطط الاستعمار ، وندرك أن اسرائيل كلب الحراسة للمصالح الاستعمارية ، وأن الاستعمار يساندها من أجل ذلك بكل ما يملك من أسباب القوة ، فانه يغدو واضحا أن كل اضعاف لمراكز الاستعمار في المنطقة اضعاف لاسرائيل . ان تطور موقف فرنسا من اسرائيل لا يمكن فهمه في ضوء شخصية ديجول وحدها ، بل انه انعكاس لتطور علاقة فرنسا بالبلاد العربية . فحين كانت فرنسا تحتل الجزائر وتحتفظ بالقواعد العسكرية في تونس ومراكش شاركت اسرائيل في عدوان ١٩٥٦ . ولما تمت تصفية المواقع الاستعمارية الفرنسية في البلاد العربية فقدت اسرائيل الجزء الاكبر من أهميتها في نظر فرنسا ، وتغلبت عندئذ ضرورات المحافظة على علاقات طيبة ببلاد تضم قرابة المائة مليون نسمة وتتمتع بموارد طبيعية ضخمة . ولنا أن نتوقع في المدى القريب تطورا مماثلا في سياسة بريطانيا ، وان كان لا بد من أن يحد منه ارتباط السياسة البريطانية باتجاهات واشنطون . وما دامت المعركة ضد الصهيونية وضد الاستعمار معركة واحدة ، فانه يتعين علينا ان نختار اضعف الحلقات ونبدأ بتوجيه الضربات اليها . ولا شك ان اسرائيل ليست أضعف الحلقات في هذه الجبهة . وبالعكس يمكن مثلا في مستقبل قريب للغاية تصفية **القواعد العسكرية الاستعمارية** في الوطن العربي ، تلك القواعد التي تستخدم في مساندة اسرائيل . ويلي ذلك **تأميم البترول العربي** . اننا نتميز في البترول بميزة نادرة وهي أن المستهلك الاساسي لانتاجنا منه هو أوروبا الغربية ، في حين أن المستثمر الاساسي هو الولايات المتحدة الامريكية . ولهذا فلن يترتب على التأميم مقاطعة شاملة للبترول العربي لا سيما اذا اقتصر التأميم على مصالح الدول التي تساند اسرائيل ، لانه سيكون من مصلحة أوروبا شراء البترول من عندنا لان سعره أرخص من البترول الامريكي ، ولانه يمكن دفع ثمنه بصادرات أوروبية الى بلادنا .

٤ **بناء الوطن العربي اقتصاديا وسياسيا وعسكريا** ، فالتفوق العسكري الاسرائيلي محصلة درجة معينة من النمو الاقتصادي والتصنيع والتقدم التكنولوجي والتنظيم السياسي العصري . وهذا التطور غير ممكن الا في ظل التحرر من الاستعمار واختيار طريق التطور الاشتراكي والسعي الدؤوب لتحقيق الوحدة العربية . فنضالنا من أجل التنمية الاقتصادية ونشر التعليم وتحرير المجتمع والمواطن من الاستغلال ، وبناء الصناعة واقامة جيوش وطنية مسلحة بالوعي وليس فقط بالسلاح الحديث ضرورة حيوية في هذا النضال المصيري .

٥) **اليقظة والقدرة على الردع** ، ولن تتركنا اسرائيل والاستعمار نبني في هدوء ونستعد ليوم اللقاء الحاسم . بل لا بد عند كل تقدم حاسم نحرزه من أن نتوقع عدوانا جديدا أيا كانت الدوافع والظروف . ومن ثم لا بد من اليقظة الدائمة ازاء مؤامرات الاستعمار والصهيونية . ولا بد أن تكون لدينا القدرة العسكرية على الردع . ان العدو لا يفهم الا منطق القوة . واذا كانت علاقات القوى لا تسمح لنا حاليا بسحق العسكرية الاسرائيلية فانه يجب ان نكون قادرين على مواجهة العدوان ورده ، وان نستطيع ان نهزم اسرائيل في بعض المعارك . لا بد من أن نضع حدا لمنطق القوة الذي تعيش به الصهيونية بين ظهرانينا . يجب ان نثبت لاسرائيل أنها لا تستطيع ان تفرض مشيئتها في أي وقت بقوة السلاح ، ونجعلها تدرك أن امامها خصما يتعين عليها أن تحسب له ألف حساب . وتندرج تصفية آثار عدوان ١٩٦٧ في هذا الاطار . فنجاح العرب في ارغام اسرائيل ـ بأية وسيلة ـ على العودة الى حدود ٤ يونيه ضربة مؤكدة لمنطق القوة وسياسة الارهاب . ان هذا النجاح يمكن أن يكون نقطة التحول الحاسمة في نضالنا كله .

٦) **الرأي العام العالمي** ، وعلينا ان نواجه الرأي العام العالمي بهذا الموقف الواضح . ذلك أنه لا يمكن ان نتجاهل دوره في كل نضال عادل . ومن السذاجة أن نقول فيما بيننا غير ما نعلن على العالم . لا بد أن تكون لنا لغة واحدة جوهرها الدفاع عن حقوقنا ضد مخططات الاستعمار والصهيونية بعيدا عن كل تعصب عنصري ، ومع النبذ الكامل لدعاوى القاء اليهود في البحر ... وما الى ذلك من العبث الضار الذي ينافي تقاليدنا الحضارية .

٧ ـ الرأي العام الاسرائيلي ، ويجب ألا نهمل اسرائيل من الداخل وما يجري فيها من صراعات . لقد حذرنا من الانخداع بالخلافات بين « المعتدلين » و « المتطرفين » من حكام اسرائيل . ولكن هذا لا يعني أننا ننفي تماما حقيقة وجود قوى تقدمية داخل اسرائيل مهما تكن ضعيفة . ان اسرائيل بعد عشرين عاما من قيامها تشكل مجتمعا له تناقضاته . ففيها استغلال استعماري يمكن ان يثير نزعات معادية للامبريالية . وفيها استغلال رأسمالي يمكن أن يفجر صراعا طبقيا . وفيها تمييز عنصري ضد اليهود الشرقيين يمكن أن يحدث انقساما خطيرا . حقا ان الجو العنصري المعادي للعرب بصفة عامة يستغل في طمس معالم الصراع الطبقي . وكلنا نعلم ان فقراء البيض في جنوبي أفريقيا او الولايات المتحدة ليسوا في العادة أقل تعصبا من الاغنياء . وهذا ما يفسر ضعف مواقع القوى التقدمية في اسرائيل . ولكن هذا لا يعني انكار وجودها . ففي الولايات المتحدة وأفريقيا الجنوبية يوجد بيض يذهبون الى السجون لرفضهم الاجراءات العنصرية . وفي اسرائيل قوم يخاطرون بحياتهم لادانتهم العدوان واعلانهم شرعية المقاومة الفلسطينية . ولهذا لا بد من أن نقر ، ونقدر ، موقف أي اسرائيلي يدين العدوان . وعلينا أن نوضح بما لا يحتمل الشك أننا لا نعادي اليهود من حيث هم يهود ، واننا لا نحلم بقتل النساء أو الاطفال أو بالقاء كل اسرائيل الى البحر . ان سياسة واسعة الافق واضحة العبارة ازاء الرأي العام الاسرائيلي يمكن ان تحدث أثرا مزدوجا : هجرة العناصر المتمسكة بالتفوق الاوروبي والتي لا تريد أن تعيش في سلام مع العرب ، وانما في سيطرة عليهم ، وكذلك الانفصال التدريجي لاولئك الذين لا يعنيهم الا العيش في سلام عن القيادات العنصرية العدوانية المتطرفة .

***

وبعد ، ان موطن الضعف الاساسي في اسرائيل كمشروع للاستعمار الاستيطانيهو أنه جاء متأخرا مائة عام على الاقل ، وأنه اختار أرضا تعيش عليها أمة ذات حضارة عريقة ولذلك فهو لا بد ان ينهار . ولكن هذا القانون الموضوعي ، ككل القوانين الموضوعية التي تحكم المجتمع البشري ، يمثل اتجاها تاريخيا ويتوقف ظهور مفعوله في الواقع على نضال الجماهير صاحبة المصلحة في تحقيقه . ان النصر في المدى الطويل للعرب . ولكن طول هذا المدى يتوقف في المقام الاول على دور العرب ونضالهم المثابر ونجاحهم في الربط بين المعارك المباشرة والهدف البعيد . ان مفتاح الموقف في يدنا . والقضية كلها هي ان نحسن استخدامه .

د. اسماعيل صبري عبد الله

الوحدة العربية آتية !

للمؤرخ البريطاني الشهير
أرنولد توينبي

عرف المؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي بتعاطفه مع العرب وتأييده لقضاياهم . وان مواقفه من اسرائيل وعدوانيتها وعنصريتها لا تزال في الاذهان .

وفي هذا الكتاب يتنبأ توينبي بان الوحدة العربية لن تستغرق من الزمن حتى تتحقق ما استغرقته الوحدة الالمانية والوحدة الايطالية ، ولن تنحرف مثلهما ، بل ان سنة ١٩٧٤ هي الحد الاقصى (كما يقول توينبي) لاشراق نور هذه الوحدة العربية .

ويتحدث المؤرخ البريطاني عن العقبات التي تعترض الوحدة العربية والوحدة الافريقية ، ولكنه يؤكد ان هذه العقبات ، ومنها مصالح بعض الافراد والاسر المستفيدة من التجزئة ، ستزول تدريجيا ، وان الوحدة العربية قادمة قريبا وويل لمن تعميه مصلحته الموقتة من ابنائها عن الحق ، وويل اكثر لمن يقف في طريقها ، معاداة للخير ، من غير ابنائها . . .

وفي هذا الكتاب الممتع تأملات تاريخية طافت بذهن توينبي اثناء رحلاته الثلاث الى بلدان افريقية ، شمالي وجنوبي الصحراء الكبرى ، وعرض دقيق لمشكلة السودان ونيجيريا ، وائتلاف الاسلام والمسيحية في الحبشة وتاريخ نهر النيل ، ووصف شيق لمنطقة « سد الجبل » في أعالي النيل وورشة « اسوان » و « الجزيرة » في السودان ، مع زيارة الى غزة ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين واشادة بالخدمات التي قدمتها مصر لتلك المنطقة . كل ذلك في اسلوب شيق ونفس انساني رفيع وروح دعم وتأييد للنضال العربي